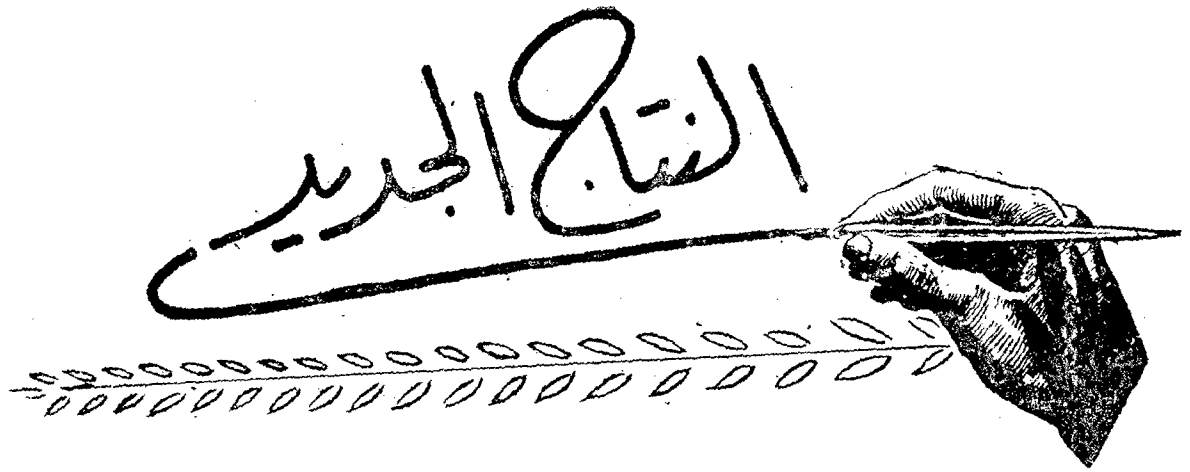

قصة الايمان

بين العلم والفلسفة والقرآن

للشيخ نديم الجسر

*

في اعقاب الحرب الكونية الاولى ، هبت على شرقنا العربي رياح من الغرب ، تحمل التشكيك بعقائدنا الموروثة ، وايماننا العميق بالواحد الاحد . وكانت من القوة بحيث اوشكت ان تقتلع جذور الايمان ، لا من صدورنا نحن الذين كنا في مطلع الشباب ونزق الصبا، بل من عقول عدد من كبار الادباء ورجال الفكر في ذلك الحين. فكان ان غم علينا الامر، وألبس الحق بالباطل . فكنا على مقاعد الدرس نتلقى ، الى جانب أدب العرب وفلسفتهم ، أدب الفرنجة وفلسفتهم ايضا . وربما كان في الاسلوب الذي اتبع في القاء هذا الادب وتلك الفلسفة ، ما يرمي ، عن تخطيط وتقدير سابقين ، الى التشكيك والتضليل . وما كانت الدروس التي نسمعها عن متكلمي الاسلام وفلاسفته وشعرائه ، الفزلين منهم خاصة ، وعن مفكري الغرب وادبائه الذين اختاروهم لنا ، وفيهم من أمثال سبينوزا وهيجل ونيتشه وداروين ، وادباء القرن الثامن عشر في فرنسا ، من فولتير الى دالامبير ديدرو وروسو ، اقول وما كانت هذه الدروس الا لتزيد في حيرتنا وتقلق راحة نفوسنا . أضف الى هذا ، ذلك العطف العميق الذي حملناه لرهين المحبسين ، وتلك الابيات التي دفعنا الى حفظها واستظهارها له ، واذا جاوزنا الكتب المدرسية الى الصحف والمجلات ، أتت في طليعتها مجلة (السياسة) الراقية ، وشعارها على ما أذكر : (حرر فكرك من كل التقاليد والاساطير الموروثة ، حتى لا تجد صعوبة في اتباع أي مذهب سكن اليه عقلك ، واطمأن لبك ، اذا وجدت من الحقائق ما يناقضه) .

وكان من كتاب هذه المجلة نفر من كبار المتشككين ، الذين اصبحوا فيما بعد ، من كبار المؤمنين الداعين الى الله عز وجل . ولا أزال أذكر تلك الضجة التي أحدثها ظهور كتاب طه حسين (في الادب الجاهلي) وتلك المناظرة الشائقة التي قامت بين المؤلف وبين مصطفى صادق الرافعي ، والتي ملكت علينا حواسنا حينا من الدهر . ثم ما قام حول ذكرى أبي العلاء) من نقد صاخب ، زاد في حيرة الشباب في تلك الايام .

ومن أهم المشاكل التي كانت تستأثر باهتمامنا حينذاك مشكلة الوجود وواجب الوجود ، ومذهب النشوء والارتقاء والقضاء والقدر وسواها مما انطوت عليه ورقة الحيران : (ما ... ؟ ومن ... ؟ ومم...؟ وكيف ... ؟ وأين ... ؟ ومتى ... ؟ ص ٢٠) فكنا بين عاملين : عامل الحفاظ على القديم ، وهو من طبعنا نحن الشرقيين ، وعامل الاخذ بالجديد ، وهو من نهجنا نحن العقليين ، او هكذا كان يخيل الينا ... واسقط بيدنا ، فلم نعد ندرك بماذا نأخذ ، ولا ماذا نترك ، ووقفنا بالحيرة التي اريدت لنا ، فلم نستطع الافلات من القديم ، ولم نجرؤ على الجهر بالجديد . فانطوينا على أنفس حيرى تعاني الكثير من القلق ، وتخشى ما حولها من صخب . ولم يستطع الوسط الثقي الورع الذي نشأنا فيه ان يأخذ بيدنا باسلوب (موزون) ليخرجنا من ظلام الحيرة الى نور اليقين ، برفق وحكمة وتعطف . ولم يكن هذا الوسط يأبى علينا فقط أي تلميح الى أي فكرة جديدة ، فضلا عن مناقشتها ، بل كان يفرض علينا القيام بالعبادات فرضاً، وبمنتهى القسوة ، مما كان يزيد في النقمة ، ويسرع بنا الى الهمة ، وكدنا نقع في هوة الالحاد لولا ان فيض الله لنا استاذا كان من تلاميذ الشيخ حسين الجسر ، طيب الله ثراه ، ومريديه . فأشار علينا بالانكباب على (الرسالة الحميدية) وعلى تدارسها وتفهم اغراضها ومراميها . فلذنا (بالشيخ الموزون) الاول ، نبثه شجونا ونستلهمه رشدنا ، فوجدنا عنده الضالة المنشودة والدواء الناجع لكل ما كان يشغل عقولنا ، ويقلق نفوسنا . فكان مقنعا في رده على الماديين القائلين بقدم المادة وحركتها ، وكانت ادلته في البرهنة على واجب الوجود جلية واضحة ، ومن ابرزها دليل النظام والاتقان والاحكام ، ورأينا عنده الحل الشافي لمعضلة خلق المادة ، ولقد بلغ الذروة عندما تناول بالبحث مذهب النشوء والارتقاء بذلك الاسلوب الفذ والجرأة النادرة التي لم يجاره بها أحد في الشرق او في الغرب ، اذ قرر بأعمق تفكير وايسر اسلوب على انه اذا ثبتت صحة هذا المذهب من الوجهة العلمية فان ذلك لا يتعارض في شيء مع ما جاء في القرآن الكريم، عند ذلك يمكن تأويل الآيات اذا كانت معانيها الظاهرة لا تتفق مع الحقائق العلمية الثابتة . وهكذا فقد ذلك من امامنا جميع الصعاب والعقبات ، وذابت جميع الشكوك والريب ، ولم يبق هناك الا معضلة القضاء والقدر، وهي معضلة كل جيل وكل يقين وستبقى كذلك حتى يوم الدين ... ثم اني أيقنت بعد ذلك ان (الامساك) عند ذكر القضاء لهو الاجدى ، وهو الاقرب للتقوى ، كما ترى ذلك في وصية (الشيخ الموزون) الثاني في (قصة الايمان) .

قصة الايمان ! اية براعة عبقرية ساحرة ابدعتها ، واية ريشة فنانة شاعرة صورتها ! وما ذلك النسق العجيب في التأليف والعرض والتحليل لمشاكل الفلسفة العويصة عبر الدهور والعقول :

هي قصة من حيث انها تستهوي جميع النفوس مهما بلغ حظها من الثقافة والمعرفة . ولقد قرأ بعضا منها (حيران) مثقف على أهل بيته ، وليسوا على شيء يذكر من الثقافة ، فماذا كانت النتيجة ؟ عجبا ! لقد رافقوه في هذه الرحلة الفلسفية الشيقة حتى آخرها ، فكان ان برىء (الحيران) من شكه ، كما حدثني صادقا ، اما أهل بيته الموقنون فقد غشيتهم موجة من النشوة الروحية غريبة .

وهي قصة لانها تقص علينا أحسن القصص وامتعه وأروعه ، اذ ما يكاد المرء يبدأ بقراءتها حتى تملك عليه مشاعره فيحبس عليها انفاسه ، ويصرف عما سواها تفكيره حتى يأتي على آخر حرف فيها .

وهي قصة من نوع جديد غير مطروق ، هي قصة (حيران) قيض

الله له شيخا (موزونا) أخذ بيده في تؤدة واناة وتبصر ، وسار به في سبل المعرفة ، متدرجا ، متحرزا ، لا يعطي النور الا بقدر ... وهل كان هذا (الحيران) يتحمل النور الباهر لو ان (الشيخ الموزون) سلطه عليه دفعة واحدة ؟ وانى له ذلك وهو من بحر الفلسفة على الشاطىء ، والفلسفة ، كما جرى على لسان (الشيخ الموزون) : (بحر ، على خلاف البحور ، يجد راكبه الخطر والزيغ في سواحله وشطآنه ، والامان والايمان في لججه واعماقه) . وهذا الحيران (ذو نفس طلعة مشوقة)

وهي قصة من اشرف ما وقعت عليه العين وما قد تقع ولست ملخصها لك ايها القارىء الكريم لئلا أذهب بجمال وحدتها وعجيب صفتها ، ولكنني ، وقد تألفت القصة فصولا ، سأجوس بك خلال هذه الفصول وسترى معي ان المؤلف الموسوعي الثقافة قد وفق الى أقصى حدود التوفيق في تلخيص الفلسفة وعرضها وتبسيطها ، وفي مناقشة آرائها وغربلة نظرياتها . وانا لا يدهشني ان يبلغ المؤلف القمة في هذه القصة لانني عرفته عن كثب ، وعرفت عمق تفكيره وشمول ثقافته وقدرته الفذة على النظر والتحليل ، ولكن الذي ادهشني حقا ان يجد ما يتطلبه اخراج مثل هذا السفر العظيم الى حيز الوجود من وقت وجهد .

لقد عرف (الشيخ الموزون) الفلسفة بانها (محاولة العقل ادراك كنه جميع المبادىء الاولى) . ولقد برهن بالفعل على ان هذا التعريف هو الاكمل والاوفى ، فراح في الفصل الاول يبحث مع فلاسفة الاغريق (عن الله) موجها جل اهتمامه الى مطلبين رئيسيين من مطالب الفلسفة وهما : فلسفة الوجود وفلسفة المعرفة ، لان الاولى هي هدف المؤلف من تأليف هذه القصة ، ولان الثانية ليست الا وسيلة لادراك الاولى . فتحدث الى هؤلاء الفلاسفة واحدا بعد واحد ، وناقشهم مناقشة من أحاط بفلسفتهم احاطة تامة ، مارا بالاقدم منهم قبل القديم ليبين كيف سارت قصة البحث (عن الله) وكيف تطورت ، وما اصابها من تقدم على ايدي كبار الفلاسفة الالهيين من امثال : اناكساغورس وسقراط وافلاطون وارسطو وما اعتورها من فتور ووهن ايام ساد السفسطائيون الذين برعوا في قلب الحقائق ، بالجدل الكاذب الخادع ، وما ألم بها من نكسة مادية عند الرواقيين والابيقوريين ، حتى جاءت (الافلاطونية الحديثة) تؤكد وجود اله خالق لهذا الكون ، لان هذه الفلسفة ليست في جوهرها وحقيقتها الا مزيجا من مذهب افلاطون والنصرانية، على الرغم مما فيها من اسفاف عندما تعرض لكيفية الخلق ... الامر الذي اوقع الفلاسفة الاسلاميين ، وهم من أعظم المؤمنين بالله ، واصدقهم برهانا على وجوده ، اوقعهم بتخيلات وتخرصات ما كانوا ليقعوا فيها لولا ان وجدوها في هذه الفلسفة .

والمؤلف الفاضل ، عند بحثه عن فلاسفة المسلمين ، كالرازي والفارابي وابن سينا وغيرهم ينحى باللائمة على الذين كتبوا عنهم دون ان يمحصوا ما في اقوالهم من (حق نير وباطل مظلم) وذلك (اما عجزا عن التمييز ، او زهدا في نصرة الايمان ، او كيدا للايمان) فراح ينصفهم ، حين عز المنصفون ، ليظهر بصورة لا تدع مجالا للشك انهم من أصدق الفلاسفة برهانا على وجود الله ، واقواهم حجة ، حتى ان أكابر الفلاسفة من الاوربيين برهنوا على وجود الخالق العظيم ، في كثير من الاحيان ، بالادلة والبراهين ذاتها التي اعتمدها هؤلاء الفلاسفة المسلمون على ما بينهم من بعد الشقة . وهنا لا بد من الاشارة الى المجهود الكبير الذي بذله المؤلف في سبر اغوار الفلسفة الاسلامية وتقييمها ، والى التوفيق الذي أصابه في احلالها المحل الارفع الذي يليق بها في تاريخ (محاولة العقل ادراك كنه جميع المبادىء الاولى) .

ثم اسمعه يتحدث عن ابن مسكويه وابن طفيل ثم ابن رشد والغزالي وابن خلدون ، نعلم كيف امتلك المؤلف ناصية التحليل والتعليل والمناقشة والاجتهاد . وما علي اذا لم الخص هذا الفصل الرائع عن الفلاسفة المسلمين ، فلست كما سبق وقلت ، في معرض التلخيص ، فارجع ايها القارىء الكريم ، ان شئت الى (قصة الايمان) لتجد كيف كان السبق للفلاسفة المسلمين على من تلاهم ، بعد أجيال ، من فلاسفة الغرب ، أمثال: لايبنز وديكارت ولوك وعمانوئيل كانط وبرغسون ، وحتى داروين وسبنسر ، سبقوهم الى كثير مما ذهبوا اليه وبرهنوا عليه ، فكانت آر المتقدمين من المسلمين غذاء لطائفة كبيرة من عقول المتأخرين ، وان لم يعترف لهم بهذا الفضل ، فاذا ما قرأت الفصول المعنونة (تلاقي العباقرة) ادركت ان الغالبية العظمى من هؤلاء العباقرة (قد تلاقوا على الايمان بالعقل ، والايمان بوجود الله ووحدانيته ، وعلى البراهين الدالة عليه ، تلاقيا يكاد يكون حرفيا – ص ١٢٣) . فهذا لايبنز يمجد ويجدد براهين الفارابي على وجود الله ، وديكارت لم يتنكب سبيل الغزالي عندما شك في حواسه وعقله ، وباكون يتلاقى مع ابن رشد في نظرته الشاملة الى المعرفة عن طريق (درس الجزئيات) ، وكذلك باسكال مع الفارابي وابن سينا وستدهش عندما تجد ابن مسكويه يسبق داروين بقرون كثيرة عندما يأتي بذلك الرأي الجريء في وصف تسلسل المخلوقات ، ونموها وارتقائها ، الذي يشير اشارة صريحة الى مذهب النشوء والارتقاء .

وبكلمة ، ان هذه المقارنة الشيقة التي اجراها المؤلف العلامة بين مختلف العقول في كل العصور ، ما كانت لتتم له لو لم يكن متضلعا من لغات الغرب تضلعا مكن من الرجوع الى الفلسفة الغربية في مظانها ، فجاءت معرفته بها شاملة . وخير دليل على ذلك فصل (بين داروين والجسر) فقد ابدع فيه ما شاء له الابداع ، في الاستقرار والاستنتاج ، فكان هذا الفصل من أمتع فصول هذا السفر النفيس ، وأوفرها دلالة على مقدرة المؤلف الفائقة في صهر أجيال من تاريخ العقل البشري ، في صفحات معدودات .

وفي (ليلة الامتحان) يسمع (الشيخ الموزون) نورا جديدا . اسمعه يقول (للحيران) الذي يعجز عن تصور الايجاد من العدم ، بعد ان سلم بامكانية ذلك عقلا : (وما قيمة هذا العجز امام البرهان القاطع ؟ فلو أعطيت ورقة رقيقة بالغة الرقة ، سمكها جزء من ١٠٠ جزء من المليمتر ،

مجموعات « الآداب »

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنوات التسع الاولى من الاداب تباع كما يلي :

			ل.ل
السنة الاولى	١٩٥٣	(مجلدة)	١٥٠
السنة الثانية	١٩٥٤	(بدون تجليد)	٤٠
السنة الثالثة	١٩٥٥	« «	«
السنة الرابعة	١٩٥٦	« «	«
السنة الخامسة	١٩٥٧	« «	«
السنة السادسة	١٩٥٨	« «	«
السنة السابعة	١٩٥٩	« «	«
السنة الثامنة	١٩٦٠	« «	«
السنة التاسعة	١٩٦١	« «	«

وطلب منك ان تقطعها نصفين ، ثم تقطع النصفين ثانية ليصبحا أربعة ، ثم تقطع الاربعة لتصبح ثمانية ، وهكذا الى ان تكرر القطع والتضعيف ٤٨ مرة ، ثم سئلت قبل ان تبدأ بالقطع وقبل ان تحسب ، كم تتوقع ان تصبح سماكة هذه الاوراق الرقيقة بعد قطعها ٤٨ مرة ، لم تقل مهما بالغت في التقدير ، ان سمكها يزيد على متريين او ثلاثة ، فاذا قيل لك ان سمكها يزيد على عشرة كيلومترات لم تصدق ... واما اذا قيل لك : انك كررت القطع الى المرة الثامنة والاربعين ، ثم جعلت الاوراق المقطعة ركاما مرصوصا صاعدا في السماء فانه يكاد يلمس القمر ، نفرت وحسبت القائل يسخر منك ، وبعد ان تتحقق ذلك بالحساب البسيط، لو اردت تصوره ، تجد عقلك عاجزا كليلا عن تصوره. خذ قلمك يا حيران واحسب ...) ويحسب الحيران ... فيقول له الشيخ : هل تستطيع (تصور) هذه النتيجة بعد ان صفتها بيدك ؟ فيجيب : والله اني لا ازال أشعر بكلال عقلي عن تصورها . فيقول (الشيخ الموزون) ذلك يا حيران أن (التصور غير التعقل ، فقد تستطيع تعقل شيء ولا تستطيع ان تتصوره) .

بهذا المثل الرائع استطاع الشيخ ان يزيل عقبة هامة من طريق ايمان (الحيران) .

الى هنا و (الشيخ الموزون) لم يستشهد بآيات القرآن الحكيم الا لماما ، ولم يسلط على الحيران النور الا بقدر ما يستطيع تحمله ، وعندما استوثق من ان (الحيران) قد اجتاز المرحلة التي تؤهله لتلقي فيض من النور اكبر ، دون ان تعشى منه العين او يزيغ البصر ، فتح له كوة على القرآن المبين ، واخذ يجمع له على ترتيب النزول ، اكثر الآيات الدالة على وجود الله وصفاته اللازمة له ، والتي تشير الى اسرار قدرته وحكمته في القصد والنظام والاحكام والتقدير ، في خلق (السموات والارض والشمس والقمر والكواكب والنجوم والليل والنهار والرياح والامطار والجبال والانهار والبحار والنبات والحيوان والانسان والاسماع والأبصار والافئدة وما ينطوي عليه هذا الخلق من قوانين ونواميس ، فتعال يا حيران نقرأ هذه الآيات ونستعرضها جملة واحدة ، ثم ندرسها على ضوء ما كشفه العلم من اسرار الوجود والخلق ـ ص ٢٤٤ و ٢٤٥). كل ذلك ليثبت(بالبراهين البديهية، السهلة، البسيطة الواضحة التي يدركها العقل بدون ان يحتاج الى الغوص في لجج الاستدلال والجدل ، والتي يستوي في ادراكها الجاهل الساذج والعالم الفيلسوف ، والتي تؤلف بمجموعها حكما عقليا يكون إنكاره بمثابة الانكار لقضية رياضية صحيحة ـ ص ٢٤١) . لقد سبق مؤلف (قصة الايمان) كثيرون من شراح الكتاب الكريم ومفسري آياته البينات ، ولكن احدا لم ينهج نهجه ، ولم يسلك سبيله في الاستنباط والاستدلال على ضوء العلم والفلسفة ، ومقارنة ما جاء في القرآن مع اراء كبار المفكرين من قدماء ومحدثين ، ليبرهن ان نتاج الفلسفة الحقة الذي انتهى اليه كبار الفلاسفة وتلاقوا عليه ، لا يتنافى ابدا مع الدين الحق في اثبات وجود الله ، ذلك لان الدين الحق (يجعل للعقل الكلمة الفاصلة العليا في معرفة الحق ـ ص ٢٢٦ و ٢٢٧) والحق يقال ان (الشيخ الموزون) قد بلغ هذه الغاية التي اراد ان يصل بالحيران اليها . فلقد برهن بالادلة القاطعة على ان القرآن قد تناول كل طرق الاستدلال التي سلكها علماء الدين والفلاسفة ، فذكر الادلة النظرية المركبة ، كدليل (الحدوث) و (الوجوب) و (العلة الكافية) ثم راح يتوسع بدليل (النظام) فاكثر من الشواهد عليه ، لانه الدليل الذي يسكن اليه كل عقل بيسر وسهولة ، ذلك ان القرآن انما جاء للكافة لا للخاصة ، فاقتضت حكمته تعالى ان يخاطب الناس على قدر عقولهم ، بالدليل الاوضح والبرهان الافعل ، وهو ، بعد ، الدليل الذي لا تزيده الايام الا وضوحا ورسوخا كلما تقدم العلم واتضحت للعلماء اسرار النواميس الدالة على النظام ، ليصدق قوله تعالى (سنريهم آياتنا في الافاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) ولقد صدق وعده الحق فاراهم بعد عصور وعصور من آياته (في الآفاق) وفي (انفسهم) ما الفوا فيه المطولات ، حتى تحقق فيهم قوله سبحانه (انما يخشى الله من عباده العلماء ـ ص ٢٨١ باختصار) .

وقبل ان انتقل بالقارىء الى ما تبقى من فصول هذه (القصة) الخالدة ، لا بد لي من الاشارة الى ما طرأ على الاسلوب الكتابي من جديد . فبعد ان اعتمد المؤلف الاسلوب العامي البسيط ، اذا به في الفصول التالية يتخير اللفظة المؤثرة والجملة المصورة ، والتشبيه المبكر والسجعة الحلوة المعبرة ، كل ذلك بروح من ظرف الاديب المتهكم ، ودعابة القاص المستملحة ، وخيال الشاعر الخصب ، ليعطينا الدليل على ان المؤلف ليس فقط عالما كبيرا ، بل هو اديب كبير كذلك . ولقد برع المؤلف في ضرب الامثال كما في (حظ المصادفة) حتى ليخيل الي ان لا بد لاي قارىء من ان يشارك المؤلف رأيه ، ويهزأ بمن يقول بالمصادفة بعد ان يقرأ حكايتي (الابر) و (المطبعة ذات نصف المليون حرف) .

وفي فصول (في الآفاق : المطويات بيمينه ، امنا الحنواء ، اخونا الصغير ، الانبيق الاعظم ، هدايا الجيران ، الفندق الكبير) وبالاسلوب الذي ذكرنا بعض ميزاته ، ترى المؤلف الفاضل ، على ضوء القرآن والعلم، يثبت لنا بالارقام وهي مذهلة حقا ، ان لا حظ للمصادفة في هذا الخلق العظيم الذي هو السماء ، ومافيها من نجوم ومجرات وسدم ، وما بين هذه من أبعاد تكل المخيلة عن تصورها .

ثم اذا ما ألم المؤلف بالارض وما عليها من عجائب المخلوقات كالنبات والحيوان ، يأتي بما لم يسبق اليه قط ، ويستنبط من آيات الكتاب معاني لم تخطر على قلب بشر ، ذلك انه لم يتسن لاحد من المفسرين والشراح من قبل ان يحيط هذه الاحاطة بالعلوم الطبيعية حتى يكشف النقاب عن المعاني المستكنة في آيات الله البينات ...

ولكن المؤلف يبلغ القمة ، قمة العلم والادب والفن والاستقراء والاستنتاج عندما يصل الى شرح (وفي أنفسهم) فيبدع أحلى ما في هذا السفر الخالد من جمال وابتكار . فكم في نظام الزوجين عند النبات والحيوان والانسان من نفي للمصادفة ، وكم في تركيب العين والاذن واللسان والقلب من دلالة على ان المصادفة في حكم المستحيل ، او هي مستحيلة فعلا .

فلا بد اذا من التسليم بأن الله حق ، خلق الخلق من عدم ، فأحسن كل شيء خلقه ، وان خلق الانسان في أحسن تقويم . وبعد ... لقد قلت في (قصة الايمان) كلمتي بتجرد وعن اقتناع ، لم أسرف في مدح ولم أبالغ في وصف ، بل ان ما في نفسي فوق ما خطت يدي . ويعلم الله انني عندما فكرت بكتابة هذه الكلمة كنت مزمعا ان لا أغفل عن نقد اذا وجدت ما يدعو اليه ، ذلك كيما اتهم بنزاهتي ، نظرا لصداقتي للمؤلف الفاضل ، ولكن ما ذنبي اذا لم أجد فيها ثغرة أنفذ منها الى النقد ، واعتقد ان من حق المؤلف الصديق علي ان اقول دون تحفظ : ان مؤلفه الخالد قد سد فراغا في مكتبتنا العصرية لا يقوى سواه على ملئه، واني لارجو ان يهدي به الله خلقا كثيرا . واليك ما يقوله عنه الدكتور زكي نجيب محمود ، وهو من هو في عالم الفلسفة ، وبالحرف الواحد : (واشهد الله والحق اني ما كدت اطالع من اولى صفحاته ، حتى الفيتني مدفوعا بدافع لم يكن لي قبل برده ، ان امضي مع (الحيران) في رحلته الفكرية الشائقة . فهكذا يكون اعتصار الثقافة الطويلة العريضة العميقة التي يتآخى في ثناياها ورع الايمان ومنطق العقل . نعم هكذا يكون اعتصار الثقافة الواسعة الزاهرة في صفحات كتاب لست اشك لحظة في انه سيصبح ركنا من أركان انتاجنا الفكري في هذا العصر ، لانه قد بلور في صياغة فنية رائعة وجهة انظارنا جميعا وأعني بها حسن الربط بين عقيدة نعتز بها ، وعقل ليس لنا بد من مجاراة احكامه) .

طرابلس — فضل المقدم

الراية المنكسة

ديوان شعر بقلم علي الجندي

المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر ـ ١١٦ ص

*

يثير هذا الديوان الدهشة في نفس القارىء . انه مفاجأة للمشاعر العادية تجاه العالم . ورغم أنه بسيط بل بالغ البساطة فان الحواس تنتعش بهذا الشعر ، ويزوغ البصر بذلك الدوار الذي يلقيه الشاعر بنفثات سريعة ولمحات ذكية . انه ليس شعرا أكاديميا فخما ، وليس شعرا حديثا غارقا في الرموز والاشارات ، وليس فيه تأمل عميق أو تفكير طويل ، بل هو مجموعة من المشاعر النقية والاحاسيس الغضة لقلب شاب يفيض بحب الحياة دون أن ينسى أساها . ويحس بالضياع والتعب والسأم واليأس دون أن يمنعه ذلك من تمجيد اللحظة الحاضرة وعب ما توحيه من الاسى الندي ولذلك يظل يحس بالامل ويؤمن بالمستقبل ويحب الحياة ويغني حبها بلوعة الظامىء اللهفان الذي لا يرتوي حتى يموت غرقا في النبع :

صوت المطر يهل على الصحراء دما
وقلوع العاصفة السوداء
مطوية
أما الاعشاب البحرية
فتردد أسماء أسماء ..

هذه هي العناصر التي تؤلف شعر علي الجندي . انها أبسط الاشياء وأكثرها قربا : المطر ، الصحراء ، العاصفة ، الاعشاب . لكنها ما ان تمر في حواسه حتى يعكسها مشفوعة بلون أو حركة أو ضباب يبهمها لتخرج من عالم الواقع الى عالم الشعر ، مما يجعل القصائد نجاوى بين الشاعر والليل والشارع والبحر وكل ما يراه الشاعر أو يحس به ، لكن هذه النجاوى لا تحمل موقفا ولا توحي بتأمل ، بل هي اقتراحات أو أنات يبثها للوجود والموجودات :

ارحم أيامي المهزوله
يا صوت البلبل
يأتيني من آخر غصن في دوحة عمري
أهجر أغصاني وترحل
فالافق رحيب والجدول
بعد الآفاق المغسوله
يترنح ، ينسج أعشاشا من تبر ! ..

وهذا الصوت الضعيف الذي يتوسل دائما للاشياء ، قلما يواجه نفسه ، أو يتحدى العالم . انه على الدوام مخنوق منسحق تحت وطأة انخلاع يبعده عن نفسه وعن الناس :

أحن للانسان في دمي فما أراه
أصيح ، صوتي لا يردد المدى صداه
تعبت من تأمل الفراغ أزرق الشفاه

ان هذا الانخلاع يبعده عن نفسه ، ويلقيه في دوامة الضياع :

لا شاطيء . أمواج أمواج
سكرى تعبه
مرهقة تحمل أشلاء مقاديري
تحملني والشمس على خشبه

وهذا الطواف بلا غاية يرهق مشاعره ويرميه مشلولا على شاطيء الحياة :

أقول للموتى اذا مر بي
سيدهم في موكب مجهد :
يا مرحبا ، لكنني متعب
مروا ، بلا صوت ، على معبدي .

انه يصور العالم مقفرا، فليس في معظم الديوان ظل لا له أو لا مرأة. وصورة الاله أغلب ما تأتي رمزا للعقم والعجز تجاه حيرة الشاعر بهذا الوجود :

رب ، يا قنديل زيت
فارغا من كل قطره
أي شوق ؟ أي حسره
يجهش القلب بها في كل نظره !

أو يقول :

ما زلت كالاله في عينيه محنة الاسى

وأما المرأة فمع أنها توقظ في نفسه الحنين ، الا أنها ليست حلا . فهي لا تبعث في نفسه الفرح ولا تخرجه من عزلته الصامتة :

.. ودائما تقول لي :
تحبني .
أحبها ؟ سأم !
تركتها ، شردت في الشوارع الحزينه
تنهشني مخالب المدينه

ان التشرد هو الجواب لاية دعوة ، بل انه في قصيدة (٨ نيسان) يسترسل مع افتتانه فيدعو ويتمنى ويرغب ويسهد :

وجوه الظلام تماثيل حب
عيون دخان معطر
على عتبات خيامك أسهر
وأسجد

الا انه يتراجع بيأس :

يذوي هنالك قلبي
فلا ، لا تثيري غبار المدى
فما عاد الا ... صدى

وازاء هذا العالم الخاوي الذي يعيش فيه وحيدا دون ايمان ولا حب ولا عمل ، يجد في الدوار والغيبوبة مخرجا من مأزق . انه لا يرتاح لهذا الحل ، بل ويشعر منه بالتعب والسأم ، الا ان جو الديوان بأكمله جو مخمور بعيد عن الصحو . الديوان بأكمله مذكرات هارب مهزوم ذاهل من صدمة لم يذكر عنها شيئا :

أضل من سنين في مجاهل البحار
أموت ألف ميتة من رهبة النهار
والليل عندما يهل من مغاور القفار
يلفني برحمة الذهول ... والدوار

ترى ما الذي انتزع الشاعر من نفسه ، ومن حبه ، ومن ايمانه ؟ ما الذي أفرغ العالم في نظره حتى بات لا يرى فيه غير الطبيعة والاشباح ، دون ان يدخل الاخرين في حسابه ؟ ما الذي جعله يرى في الذهول رحمة وفي النهار خوفا مميتا ؟ وما سبب هذا الحوار الطويل الذي يدور بينه وبين نفسه في قصائده ؟ انه يهرب الى الطبيعة أو الى الدوار ، فمن أي شيء ؟ :

المدى الازرق دعوه
للرحيل
كل شيء مات في الدرب الظليل
غير شهوه ..
فلتعد . عد للصحارى الزرق للافق الذليل ! ..

هذا المونولوج الداخلي قد يحدثنا عن القصة التي صمت عنها الشاعر . فدعوة الرحيل ترافقها شهوة الى العودة ، العودة الى الصحاري ، لكن هذه الصحاري محفوفة بأفق ذليل ينفر منه كبرياء الشاعر ، ولما كان لا يستطيع شيئا لهذا الذل ، فانه يهرب الى المدينة مبتعدا عن ذل الصحراء :

وصلت ، يا دمي ابتسم واستقبل المدينه
وأبعد الظلال عني والرؤى الحزينه ..

ويعزي نفسه :

في منزل هناك ساهم النوافذ

صبية ترش الطيب للنسيم ..

الا ان الصبية لا يمكن أن تبعد عن ضميره ذل الصحراء ولا محبتها ، لذلك يسأم المرأة ويشرد في الشوارع يصبغها بحزنه ويضيع في غمـــار المدينة وحيدا متشهيا مخنوقا :

أيتها المدينة المسرفه
بالدل والاغراء والمجرفه
يا موسما تحيا على الارصفه ! !

لقد تجوفت المدينة في نظره وفقدت معناها حين عجزت عن ابعـاد الصحراء من خياله . ان ضميره لم يوافقه على الفرار ، وهو يعكس هذا التمزق في حياته بضياعه ويأسه :

مرة أخرى على مرج الرماد
كل شيء صامت صمت السواد
للرياح الهوج أسلمت قيادي ...

لكن ذلك الضلال لا يعزيه ، بل يزيده غربة عن المدينة ووحشة في لياليهـا :

أمضي وحيدا في لياليك
ظلي معي ، تاريخي القاتم

وما يعذبه هو تاريخه بالذات ، هذا التاريخ الذي يتعلق بالقريـة القائمة وسط الصحارى الذليلة :

.. بلدتي مصلوبة في الحر والغبار
مشنوقة أشجار بيتنا في حمأة النهار
ضروع أرضنا جفت من البوار ...

وهنا ، للمرة الاولى والاخيرة ، يظهر الاخرون ويظهر الجرح الذي هزمـه :

أطفالها مشردون في الطريق
عارية أقدامهم ، ثيابهم رتوق ...

وفي هذه القصيدة بالذات تظهر الشخصية الحقيقية للشاعـر .. هذه الشخصية قبل أن تنهزم وتنكس رايتها أقام البوار والحر والغبار وحلمت ببناء مستقبل لايتشرد فيه اطفال القرية ولا يعرون .. وها هـو الشاعر يعود :

أبحث في ازقة القرية عن شفاه ،
عن نسمة ندية ، عن قطرة من المياه ،
لكنني في كل زاوية
أرى خيوط عنكبوت أصبحت كفن

وعند هذه الخيبة ينهار الشاعر منتحبا على ما تبقى بنشيج يائس :

يا أيها الوطن
غدوت هاويه
تموت في قرارها الرياح والمحن ! !

ثم ينكس الشاعر رايته ويمم شطر المدينة حيث يجتر ألمه ويعيش مع همومه ويتحدث عن الضياع والضجر بصوت كئيب وروح محطمة . ان هذا الديوان الذي يبدو لاول وهلة فرديا الى أبعد الحدود ، هو شعـر مفرق في الالتزام ، مخلص لوطنه وأمته أكثر مما أخلص له معظم الشعراء المنبريين . انه صوت جيل جديد مرتبط بآلام أمته ، مقعد عن تخليصها ، هارب لكنه يحمل في ضميره اليقظان ثقل المأساة وعار الفرار . انـه يحافظ على شرفه بصدق موقفه ، ومن قبل كانوا أنذالا لا يعترفون حتى بالهزيمة . ان ازمته لا تصدر من حياته بل من محيطه . والبراعـة التي تستحق الاحترام في فن علي الجندي انه ، كمثقف ، لم يزيف أفكاره ولا مشاعره بالاحاديث المجردة عن سأم الانسان وقلق الانسـان وضيـاع الانسان والخ... لقد عرض حالة خاصة به . عرض قلقه الخـاص كهارب من القرية الى المدينة ، وتكلم عن سأمه الشخصي وغربته في المدينة ، وشكا من اقتلاع جذوره القروية وضياع نفسه . وهو في كـل ذلك لا يمثل الفلاح المهاجر الى المدينة ، وانما يمثل المهزوم الملتجيء الى دار غريبة عنه وحياة بعيدة عن روحه ... وهو على كل حال لا يشعـر بمرارة الانكسار لانه لم يخض معركة ولم يخسر شيئا ، بل ان آلمه ينجم عن انه ورث هذه الهزيمة ولم يستطع أن يثأر لها بل تراجع أمامها دون ان يفلح في نسيانها . ولذلك يرى نفسه مشوها على الـدوام دون أن يتحدث عن معركة شوهته . لقد ولد على هذه الصورة ولم يفلح في تغييرها . ولذلك فانه يمثل جيل ما بعد الهزيمة .

ذلك هو المضمون الذي يمتح علي الجندي منه شعره . اما الشكل الذي صاغه فيه، فهو قصائد غنائية تمتاز – في أحسن حالاتها – بالضبط والسلاسة وحسن التصوير والخيال الملهم البكر المعروض باقتصاد وقدرة على الايحاء من حيث الاسلوب ، أما من حيث البناء فان القصيدة الغنائية أو الحوارية استوعبتا تجربته . على أن ثمة ملاحظات عن الروح النثرية المتفشية في بعض القصائد :

يا أيها الجمال
هزئت بي
جعلتني أكفر بالانسان
ان لم يكن جميلا

فالاداء المباشر وعامية الفكرة المنظومه يؤديان الى نثرية غير مستحبة، كذلك ثمة تعثر في الصياغة . وهناك أيضا تأثيرات مباشرة لمطالعـات الشاعر الشعرية ، فتأثير نزار القباني واضح جدا على الاخص فـي قصيدة « جزيرة النجوم » وهناك ظل لمطالعات الشعر الحديث بأكمله ، الا أن الشاعر قد زاد على ما أخذ وطوره بما يتلاءم مع مزاجه وطرائقه في التعبير . أما البناء فأخشى أن أقول انه مفقود من معظم قصائد الديوان، كما أن الموسيقى الداخلية فاقدة الانسجام بسبب عدم اعتناء الشاعـر بخلق نظام للقصيدة يضبط القوافي والاوزان بنظام خاص يختاره الشاعر ليظهر جرس القصيدة وجمال ايقاعها . ولعل الخسارة الفادحة أحاقت بالجرس لان الشاعر لم ينسق حتى القوافي ... بل انه حذفها في بعض الاحيان كما في قصيدته عن الجبل .

دمشق — محيي الدين صبحي

في المكتبـات

عاصفة على السكر

تأليف جان بول سارتر

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

كتاب رائع يتحدث فيه الكاتب الفرنسي الكبير عـن الثورة الكوبية التي قادها فيديل كاسترو ، ويفضـح خطط الاستعمار الاميركي لخنق اقتصاديات كـوبا ، ويصف مختلف الاوضاع السياسية والاجتماعية التـي ادت الى نشوب هذه الثورة التي تعتبر من اروع الثورات في تاريخ الشعوب .

كل ذلك باسلوب تحليلي طريف وعميق امتاز به جان بول سارتر ، وروح تحررية تجعل هذا الكاتـب العالمي في طليعة المفكرين الاحرار الذين عرفهم تاريخ الفكر والسياسة

منشورات دار الاداب — الثمن ٣ ل.ل.

ثائر محترف

رواية بقلم مطاع صفدي

منشورات دار الطليعة ـ بيروت

ـ ١ ـ

جوهر المعاناة ليس الا في الوعي العميق للانسان في العالم . انه يعطي وجوده امام الذات لحظة تكوينها الاخر ، بكلية طهره . وما العالم، بسريته المفرطة ، الا المجال الفاجعي للوعي ، في تكشفه معطياته الذاتية والموضوعية . فالمعاناة والوعي : توأمان . المعاناة بتوهجها الغامر ، والوعي بظله المكثف الملقى على الاشياء والموجودات .

من هنا نجتلي الانطلاقة الطفلة المبدعة في رواية ((ثائر محترف)) ، حيث تتدفق المعاناة ، من الداخل ، كنهر رؤيا غامض ، بلا قرار ، لتنبش، بما تفرضه من وعي ، مسافات العالم الذي تحياه . ولذا كان للشخصية نموها الخاص ، وتفردها ، وعمقها ، فيها . ولذا كانت الشخصية أشبه بالطفرة ، في معانقتها لنزوعها الداخلي ، من أجل موقف ـ في العالم . ومن هنا كانت الرواية تعطي الكشف الحي للوجود في وحدته الحية ، وفي تجوهره الفامض أيضا ، حيث نلتقي بالدلالة الميتافيزيقية من داخل الاوضاع العاينة والمعانية للانسان في العالم . ذلك ان الاوضاع الخارجية عندما تتفتح في الرواية ، فانما تتفتح من خلال بناء وجودي متداخل ، متكامل ، يحطم حدود اللحظة . وبكلمة اخرى ، نقول : ان الزمان يتشعب ، ويتشعب ، ليتداخل في المكان ، دون أي تأطير خاص ، في الآنية المتفردة المتوحدة ، التي تستغرق ابعاد الزمان ، كلها ، والتي تتفتح ، بشراهة ، لتمتص كل التشعبات الزمنية الاخرى . ولذلك لم يكن ثمة قيمة كبرى لجانبي المكان والزمان . ذلك أن أوضاع الرواية تنبثق من الذات ، حيث تمتزج المتناقضات في بئرها المهجورة ، لتعطي القيمة الاخيرة لموجوديتها . ومن هنا كان للرواية بنيانها السمفوني المعمق ، بحيث يحس توهجها ، وعمقها ، ونموها الداخلي المتراكب ، كما لا يحس في أي رواية عربية . وما انتقال الكاتب من وضع شخصيات ، الى وضع شخصيات أخرى ، الا التركيب المكثف المتواتر الذي يعطي حركة ما خاصة ، ونموا خاصا في اعطاء الاوضاع الاخرى .

واذا أردنا أن نبحث عن الجمالية في الرواية ، فلنبحث في هذه المحاور ، لانها تشكل النقاط الضوئية الاولى فيها . وعلى هذا فان أي اختزال للرواية ، لن يعطي أي ظل لها ، في توهجها ، وعمقها ، ونموها الداخلي المتراكب . (١) فمطاع صفدي لا يقدم لنا أحداثا خارجية ، وانما يقدم لنا أوضاعا يشتق الفرد فيها موقفا ما ، باحساسه الحاد ، بوعيه الحاد . فكانت الرواية محاولة كشف مخلص ، أكثر منها محاولة لالتقاط احداث مرت بنا ـ ذلك أن الرواية تدور حول حركة لبنان الثورية عام ١٩٥٨ .

وليس ثمة أقدر من مطاع صفدي على الكشف ، الكشف الحي المخلص . انه يتحد مع جوهر الرعب في وجودنا ليشتق منه الذروة التي يتبناها جيلنا . ولذلك كان لرفضه المعنى العمق : الاتحاد مع جوهر الرعب في وجودنا ، بشتى مسافاته وأشكاله وألوانه .

ولقد التقينا به في رواية ((ثائر محترف)) روائيا ميتافيزيقيا من الطراز الاول . ولقد يكون متأثرا فيها بالنتاج الروائي الغربي الحديث. ولقد يكون أعطى شيئا ، ليس بالقليل من رواسبه الفلسفية خلال روايته. ولكنه يبقى ، مع هذا كله ، وبهذا كله ، ذروة واعدة ، قلما يلتقي الجيل مع مثلها ، في نتاجنا الادبي الفكري الحديث .

فقضايا الجيل : رفضه ، بعثه ، كسوفه ، موقفه من مشروع حضارته ، ومن الحضارات الاخرى . هذه بقعه الضوئية ، هذه ظلاله الفامضة . وهو يقبض عليها بمرارة ، لانه يخلص لها ، ولانه يخلص .

(١) بودي أن أشير الى أن أي اختزال لهذه الرواية عملية صعبة ، عدا عن أنها عملية (تشويه) ـ ان جاز لي هذا التعبير .

يعبر عنها بالكلمة الخالقة . واذا كان الكسوف هو النهاية ، فانه يشتق من هذا الكسوف الفامض ، الذي يعانيه الجيل ، رفضه لكسوفه ، من أجل انطلاقة بكر تغسله بشمس الصحراء . وعندئذ لن يفترس الكسوف الشمس !

ولا بد لوعي ثورية الجيل ، في نتاج مطاع صفدي ، من وعي التكوين الداخلي لهذه الثورية ، عدا عن وعي التجربة العارضة التي تعانيها . فهي ، قبل كل شيء ، تشترط الاحساس بالبراءة ! وهي ثورية ، لن تكون ، بالضرورة ، ثورية تجربة عارضة ، او تجارب عارضة ، كما قلنا : وانما هي أزمة تكوين داخلي من أجل ثورية مستمرة حقة(١) وهو يعبر عنها، من خلال نتاجه ، بكل اخلاص ، فلا يهمه ان يعطينا الجوانب الايجابية ، بل يعطينا الجوانب السلبية أيضا . وهذه مغامرة . فاذا كان لا بد من الاخفاق ، فليكن الاخفاق . ليكن الكسوف . وليفترس الكسوف الشمس!

ـ ٢ ـ

(كريم) يستغرق ابعاد الرواية كلها ، لانه يحكيها . فيعطينا الاوضاع الروائية من خلال وعيه الخاص لها . فهو ، قبل كل شيء ، انسان يلقي بوعيه على الاشياء والموجودات ، دون أن يفتقد ذاته خلالها .

ففي لقاء (كريم) مع (ماري) يقول : ((... رحت أفتقدها ، وحواسي تتابع ملامحها ، وعجزت عن الاحاطة بها . كانت تفلت من حصاري لها ، كأنها شبح ، كأنها فيض غمام يمكن أن يكون موجودا ، أو غير موجود في ذات اللحظة)) . ص ٩ وتشكل (ماري) محورا شفافا من محاور الرواية . فهي تحيي تهويمها الديني الخاص ـ وهذا شكل من اشكال الثورية في هذا العصر ! ـ تحاول ان تحيى بلا خطيئة ، من اجل الامتزاج بالذات الكلية للكون . انها تبحث عن معادلها الحقيقي ، في أزمة تصوف حاد ، تتصبى فيها التكوين الغيبي . انها لا تلتصق ، جسدا حرا ، بالارض : أرض المطر والنسيان . ولكنها تحاول أن تلتقي بالارحب الميتافيزيقي ، لتلتقي بحريتها . ولذا يقول لها كريم : ((كل شيء متروك في مكانه ، لن يسبقنا اليه أحد)) . ص ١١ . كما يقول : حاولي أن تشعري بالموجودات الاخرى حولك ، ولصق جسدك)) . ص ١١ . وكريم هنا ، يعي الاخر . يلقي ضوءه المغترب عليه .

ويقبض على جوها التهويمي بكلمات مبدعة ، فيقول:

((تستغرق عيناها الكبيرتان في منظر خفي تقبه الى داخل ، وينحني جذعها المدور الى الامام قليلا ، كأنها تحاول مس شيء غير موجود ، ويتوهج لها جو من السر والشعر . حتى انها تستطيع بهذه الحالة الخاصة أن تفرض جوها على أي تأطير خارجي ، تهدمه ، وتستهلكه شخصيتها الخاصة ، وتسيطر عليه ، فتصبغه بوشاح زهبة وعمق وضياع خاص .. خاص بها وحدها . ص ٢٣ .

هنا نلتقي بعطاء جوهري لتكوين هذا المحور من محاور الرواية ، الذي لا يعترف بأي قيمة لهذا العالم: ((.. هذا العالم لا قيمة له عندي)). ص ٢٥ انه رفض مرعب . يحاول النزوع الى المطلق من خلال تجربة شخصية فامضة . ويعطينا مطاع صفدي تعميقا خاصا في لقائها وكريم في بيتها المنعزل ، حيث تقول له : ((أنا أبحث عن المطلق ، ولن أعثر عليه لا لشيء ، سوى لانه المطلق .. الخ)) .. أنا أبحث عن الاله الذي سيعبدني)) . ص ٤٥ وهي ، هنا ، تعي وضعها . وتحاول أن تنطلق منه، من أجل البراءة الكلية ، براءة الاتصال بالغيب (٢) . وتتفتح الكلمات ، كزهرات من نار :

((كان هذا الغيب هو معبودها ، وتريد أن تحوله الى عابد لها . كانت تعتقد ، ولا شك ، أنها بشكل من الاشكال ، لا بد أن تجسده ، تجسد هذا الغيب المجهول ، فتضفط عليه بجسدها كله ، وتحرق على

(١) يستطيع القارىء الاطلاع على دراسة الاستاذ مطاع صفدي للثوري في شتى أشكاله ، في كتابه الممتاز : (الثوري والعربي الثوري).

(٢) براءة الاتصال بالغيب ، هنا ، كصيغة ميتافيزيقية ، تقابلها براءة الاتصال بالبعث الحضاري للامة كصيغة فكرية عند الجيل .

جحيمه قدميها الطاهرين : «كان تحن .. تحن الى الخطيئة . ليست أي خطيئة .. بل تلك التي تكون مطلق الخطيئة كلها » . ص ٤٦ هكذا أينعت عنف التجربة عندها . وعندما تجرب مغامرة الجسد مع (مهدي) الفنان العراقي المنفي تحس بانها لم تجرب ، لم تحب الاتجاه رعب الاله أنطلسم وعندما تحول بيتها لجرحى الثورة اللبنانية ، وترى اليهم ، تتهجد ، تبتهل في كلمة ، كالخضم ، تلتقي فيها المتناقضات : « رباه ، لو انك موجود » ص ٣٥٤

وتواجه ، أخيرا ، لحظة الوعي الحقيقي ، لتلتقي بموقفها الصميمي: « لقد كانت حياتي كلها معارة » . ص ٣٨٧ وتلجأ الى الدير . وليس ثمة من وعي بالانسان في العالم ابعد الرحيل المر الفامر من باريس ، الى الهند والهملايا ، وبعد حب وحب . وتستيقظ هزيمتها في كلماتها الاخيرة لكريم :

ـ عفوا يا كريم . لعلك تدرك يا صديقي . لست من قوتك . أنا اعرف انك سوف تصمد ، وانه لا دير لك في العالم ـ هل أرثي لنفسي، أم أرثي لك ... ص ٣٨٨ .

ولعله يمكنني أن أقول : انها تمثل عوالم حضارتنا : باسطورية تاريخها ، بانفتاحها ، بمغامرتها الكبرى مع الاله . وبذا تكون الشخصيات الاخرى حركات ثانوية تتلاشى في ايقاعها الفامض الخاص .

انها لم تر في العالم كجوليا (١) لتلتقي بحريتها ، انما آثرت الهرب الى مطلق الدين . اعطت حريتها قربانا للظل . وهذه هي ثورية القتل، ثورية تطمر الذات من اجل تصبي الظل المتفتح كوردة وحشية . فهي ليست (كحنان) في مغامرتها الرتيبة المقتولة مع الكون . حنان تبحث عن مغامرة . ولكنها تضيع مغارة الجسد الكبرى ، تضيع مغامرة الوعي، رغم القائها بذاتها في حركة الجيل الثورية (٢) انها تقتل جسدها كماري. كما تلقي بذاتها في ركام الموجودات المطمورة على طريقتها العصرية . وهي ليست (كأليس) التي تشكل الوجه الاخر من مشكلة الجنس ، والتي ترى الى الوجود كطفرة لتعانقه كما هو ، بلا ترقب . وليس ثمة من مشكلة الهية ، ليس ثمة من مشكلة قيم نسبية . وما القيم الا البقع الكامدة للوعي ، الذي لاينهض من اجل الامتزاج بطينة الطفرة الانية . حتى (مارغو) ، ابنة اللبناني الصميمي ، الطفلة في وعيها للوجود ، تتنقل لومس من اجل ان تحيى على طريقتها الخاصة ، من اجل ان تمثل دورها الخاص !

ولكن (ماري) ، مع تعدد الشخصيات ، تبقى والراقصة (مادو) الايطالية ، محورين من محاور الرواية المعمقة ، لتحسس كريم بطبيعة تكوينه المرهق من خلالهما .

يقول : « كانت تلقي بالكلمات وهي حية ، تلصق بها دائما قطعة من لحمها الداخلي. وتقذف الحروف بلهجة ملونة تشع شعورا موحشا ازرق» ص ٦٩ فالموجودية تعني ان يعطي الانسان من ذاته في كل شيء ، ان يشع ، ان ينتحر ، من اللحظات ، باخلاص . ولما عبرت (ماري) عن موجوديتها المأساوية في موسيقاها الخاصة تعبر (مادو) ايضا عن موجوديتها المأساوية في رقصها . (ولقد كانت تحلم ان تكون بالينا حقيقية) :

« .. وامتزجت اعضاؤها بأصداء الايقاع . كانت تقاوم شيئا ما يلفها من الاعماق . كانت تناضل ايدي اخطبوطية تقبض على رشاقتها . ولكنها تدور ، تقفز ، ويتصاعد نضالها الموقع أعنف فأعنف . تدور ثم تهمد فجأة على ركبتيها ، وينسدل الشعر الاسود على الوجه حتى الركبتين . يطول الهمود ، يطول الركوع . ثمة صلاة وحشية تنقلها من جبينها الى ساقيها ، الى الارض .. الى الوحشة الظلماء حولها ص٣٥. وهكذا تنبثق قضاياها السرية الصغيرة : رقصها ، امها ، بكارتها ، جيليها قيمها الصغيرة ، صديقها العازف المريض (مينو) . وهكذا تكون الفبطة بالنسبة لها تمزقا قامرا ، يحاول ان يلتقي باللحظة الفامضة التي تفجر فيها حيوية الزمان ، بابعاده كلها .

وثمة اشارة الى الانفراق بين ذاتية (مادو) وذاتية (ماري) : فالاولى تمارس التحدي وهي الذات من داخل . وزارة (ماري) اعتزلت الاغراء راحت تبحث عن جسدها في فلسفات الموت انها تريد ان ترفض ، ولكنها تسعى الى ان تدرك معنى هذا الشيء الذي هي سجينة فيه » وهو سجين فيها : الجسد . ص ١٠٦ (٣)

ومن هذه التربة العذراء تنبعث الحيوية حارة، لتعطي الانثى امكانية تحقيق وجودها . ولكن ، هناك ثعبان الاخفاق هناك جرذ الاخفاق يمتص الروح ، يمتص الجسد . وكيف تعطى امكانية تحقيق الوجود ، أي التمرد على الولادة الاولى ، من اجل التكوين المجدي وليس ثمة من مجالات الا مجال الزيف ؟؟

ـ ٣ ـ

(كريم) البقعة الضوئية الاولى في هذه الرواية ، التي تلتهم ، بشراهة الابعاد الاخرى . انه يتحسس وحشية الكون بوعي حاد يتأكله ، يحرق قمح ذاته من الداخل . انه ينفتح على وحشية الكون . وكل ما فيه كذب كذب . ولقد يكون الكون ، والانسان في هذا الكون ، كذبة كبرى :

« هناك كهف لم اجده بعد ، خال من الهواء ، وبالتالي أصم عن كل صدى . هناك الصوت هو ذاته . انه الحركة بدون صدى » . ص ٩٠

وينبثق ارتباطه الداخلي بذاته . ويحس حاجته الى (اعادة النظر) اعادة النظر . هذه اللعنة الجديدة التي تنخر في الجيل من اجل تكوين جديد . ولذا يحس انه بلا ثمن ـ بعد ـ انسان ، بلا ثمن . فتعرية العالم ستعيد اليه ظلمته ستكشف عن قاع بلا اسم . ص ١٣٦

« انسان مشرنق » ! انه يعي . والوعي لعنة الجيل : « هناك حاجة عجيبة للالتصاق . بقعر الشرنقة ، للترسب داخل تجويفها الرطب ، للتآكل البطي في ظلمتها وعزلتها المختنقة ، الخانقة » ص ١٣٦

ولذلك يرفض ان يباع ، ولذلك يرفض عرض (ميشيل) بزيفه ، بطيبته الكاذبة . يرفض الوجه المزور للاستاذ (بول) . ولذلك يقول لاخيه في النضال ، كنعان : لا شيء الان او غدا ... لم انته بعد من مشكلتي . والحوادث تداهمني . وانا لم اتوصل بعد الى شيء « ما كنت ابحث عنه سوف ادعم موقف الشاهد» . ص ٢٦٢ .

هذا موقفه الاولي من ثورة من اجل التطهر في لبنان . ولكنه يلقي في النهاية بذاته في الخضم . يكفي الثورة ان تكون ثورة لتبرر ذاتها . وهكذا يلقي الاخرون بذواتهم ايضا . ذلك ان كل واحد منهم يريد ان يوجد . « وما دام هناك شباب على هذه الارض العربية الصفراء يريدون ان يقاتلوا ، فانهم على حق دائما .. ولا بد ان اكون معهم .» ص ٣٢٢

ويتردد بعضهم ، ففؤاد يقول : اريد سببا غير الادعاء .. غير التعويض غير التحويل الجنسي ، سببا حقيقيا من أجل ان اصبح قاتلا مشروعا .. ص ٢٨٦ . وتلح عليه قضاياه الصغيرة : فلنؤله جسدنا ! فلنفترس جسدنا ! اهذا هو كل شيء ! وماذا يريد ؟ « انه يهتز ، يصمت قليلا يتشنج اكثر ، يكاد ان يتقطع .. ليته يرتمي على جسد .. اي جسد.. جسد اخر طري ..» ص ٣٢ بينما يلقي اخوته بذواتهم في الخضم المتناقض .

ولكن حلم العراء ، حلم الخلق ، يتردد ابدا خلال الخضم . حتى (اندريه) رجل الروح العجز ، والشعر ، والانتشاء الرتيب ، يحلم بهذا العراء ، بهذا الخلق .

« انني احلم بالعراء الاكبر ، بالاعصار الهمجي ، وهو يقتلعنا من جذورنا النخرة ، ويدفع بنا في دوامة من الخلق الجديد . اواه يا الهي .. او تتساقط الامطار ثانية على هذه المدينة حتى يتحلل الاسمنت في الابنية ، وتمتليء التجاويف كلها ، ويعود كل شيء طينا وحما لا شكل له » ص ٣١٠ (كنعان) طفل الحركات (مهدي) المنفي دائما ، (عبد

(١) احدى شخصيات (جيل القدر) للاستاذ مطاع صفدي

(٢) لعلي استطيع ان اقول ان شخصية (حنان) تشكل نحوا خاصا بالنسبة لشخصية ليلى ، احدى شخصيات (جيل القدر)

(٣) ثمة بعض الشخصيات الاخرى . نشير اليها فقط مثل : اوديت فطمة ، فايزة ـ الخ..

ونحب ان نقول : اننا نقدم لوحة نقدية ، لا دراسة نقدية ، بما تحمل هذه الكلمة من معنى .

الحميد) ، (الياس) ، والمقتولون و (سمير) الانسان المتازم والـــذي يبحث عن الفكرة التي تلتحم بحياته ، فينتهي ، ينضج ... كلهم في الحركة حركة الثورة ، ولكن الحركة تموت (١) ويتسكع المنضمون من جديد على الارصفة ، وفي المقاهي ، وفي العلب ، والاقبية . وترجع بيروت لاحتضان المنفيين من جديد .

لقد ماتت الثورة

ـ (الجيل) يا شباب اصبح مفلسا ، الجيل لا يعرف السام . انه مجرور على الارصفة ، ويبحث عن الله ..

لن ينام بدون عشاء . ص ٣٧٠ . هكذا يصرخ احدهم !

ويرجع كريم ليعانق كسوفه مع الجيل ، ليرتد الى اعادة النظر . نحن بحاجة الى اعادة النظر في كل ما نملك . هكذا تتنحر الايقاعات المتوترة في الرواية : الدوار ، الدوار ، يعصف بكل شيء . يقتلوننا هنا وهناك وفي كل مكان !

وكريم يحيى هذه المأساة الكبرى ، كما يحياها الجيل :

« أعيد النظر ، اعيد النظر ، ثائر محترف ، عتيق منذ عام ١٩٣٧ الى السنوات الاربعينية بين دمشق ، وفلسطين ثانية . الجزائر . الوحدة ، والصراخ واحد دائما بين القتلى . اعطونا جسدنا ، اعطونا جسدنـا . رجال بدون اسلحة ، نساء بدون اجساد ، وارض بدون مطر ... واديان تبرأت منها آلهتها . » ص ٢٩٩

وبين كل فصل وفصل في هذه الرواية تتوتر الحركة الذاتية لتلقـي بايقاعاتها على الموجودات . ومع الكسوف لا بد من جيل يحترف ثورته من أجل ذاته . يكون استمرارية ثوريته ... يكون مجـرد استمرار .. حتى الموت .

« كان الكسوف معلقا . وكذلك الصفرة المزيفة تحتضـن الشوارع والوجوه والسيقان العالية » ص ٣٩٠

كان الكسوف معلقا اذن . ولا بد من مناوأة الكسوف . الكسوف هذه اللعنة الجديدة التي تلاحق الجيل . لابد من محو الكسوف ! هذا القاتل العصري الغامض . ومتى عرف هذا القاتل العصري الغامض فقد يعرف الجيل كيف يحتزه من جذوره !

عندئذ سينتهي الكسوف وسينهض فارس الرمل !

عندئذ سينتهي المنفى او ستدق ساعة البعث !

ولقد نلتقي بذلك في « مدينة الانهر السبعة » ، باعترافاتها (٢) ستتكثف لحظة الخلق ، وينبعث الهها من مصباحها الخزفي ، من اجل التكوين المجدي .

بعد الصراع المر ، والرعد الربيعي المدوي والحنين
بعد القلوع البيض ، والاجراس في المجرى ..
وجوه تعبر الرؤيا ، وتنده عرقي الميت الدفين
وكقبلة غجرية ماتت على شفتي اوراق السنين
ووجوههم ، رؤياي ، تنده : هللويا ، هللويا
وجوههم ، رؤياي ، تنده . غالني المجرى ، واحرقت السفين
فمتى يغني في عروقي الطفل ؟
حبي كان للنسيان ، وجهي كان للنسيان ، عمري كان للنسيان
تكوينا ترهل بانتظار
تكوينه الثاني ، وفي تكوينه الثاني يعاني ما يعاني ،
(العمر للنسيان)
هل يثري عروقي الطفل ، يثري .. بالكواكب ، بالثمار . فاللاتناهي والبداية ، في ازقة وعينا ، تهددنا ، وتعطينا التحول :
طفرة ، جسرا لمسح الارض . هل يثرى عروقي الطفل ، يثرى ... بالكواكب ، بالثمار ؟؟ (٣)

حمص — مصطفى خضر

(١) ثمة بعض الشخصيات الثانوية ، نشيراليها فحسب مثل : غياث ، محمد ، عبدالله ..

(٢) الرواية الثالثة للاستاذ مطاع صفدي ، يعدها للطبع .

(٣) من قصيدة لكاتب المقال ، بعنوان (التكوين اللامجدي)

سلسلة الجوائز العالمية

صدر منها :

١ ـ المثقفون

رائعة الكاتبة الوجودية الكبيرة

سيمون دو بوفوار

الحائزة على جائزة غونكور الفرنسية

ترجمة جورج طرابيشي

في جزءين ـ ثمن الجزء ٧ ليرات لبنانية

٢ ـ السأم

اخر رواية للكاتب الايطالي الشهير

البرتو مورافيا

وهي الحائزة على جائزة فياريجيو الكبرى

الثمن خمس ليرات لبنانية او ما يعادلها

٣ ـ ابك يا بلدي الحبيب

تصوير رائع للمأساة العرقية في افريقيا الجنوبية

تاليف الان بيتون

ترجمة خليل الخوري

الثمن ٤٥٠ قرشا لبنانيا

منشورات دار الاداب ـ بيروت